والسيدة نفيسة حتى ليعجب البعض من مكثه المستمر على مرأى ومسمع، ليلا ونهارا، متى ينام إذن؟ متى يمضى إلى بيته؟ كيف تظل ملامحه نضرة طوال جلوسه إلى مقعد القيادة، لا يفتر طرفه ولا يدركه نعاس أو يبدو عليه ذبول.

لم يتغير تعبير وجهه الهادئ، الرقراق، إلا بعد انقضاء ثلاثة شهور على جلسته تلك. مجرد تبدل طفيف لم يلحظه حتى المقربون منه، الغريب أنه تكيف مع وضعه الجديد المتناقض مع كافة ما نشأ عليه، وما عرضه، وفيما بعد قال لامرأة بدينة تبيع البليلة من أذان الفجر إلى ما قبل شروق الشمس، مكانها المختار، المفضل، المعروف منذ الأربعينيات، عند مدخل حارة الجودرية فيما يلى مسجد المؤيد. إنه فى البداية فوجئ، كأن جرارا ثقيلا ظهر أمامه فجأة أثناء تقدمه على السريع. عليه أن يتصرف، ألا يستسلم لأى وضع مهما بلغت خطورته، الثبات مهلكة، هكذا أوهم نفسه أنه يجلس إلى عربة يألفها ويتطلع عبر النافذة إلى ما يمر به، لصيق بمقعد القيادة.

قال إنه جاهد فى البداية، لكنه لم يستسلم للضيق، استمر محدقا أمامه، بدأ باستعادة ما رآه وعاينه فى أسفاره، لأول مرة يدرك أنه لم يتفحص ما مر به، ولم يفكر فى الأشخاص الذين عرفهم، راح يسترجعهم على مهل، وأمعن فيما تلى ذلك فصار يخصص يوما لطريق معين، أو لموقف مر به، أو لمكان ارتبط به، أو شخصية عرفها ولم تفارقه ملامحها، أدهشه ذلك، خاصة عند اكتشافه أمورا لم يتحقق منها وقت وقوعها، ثم بدأ يتذكر لحظات لم يكن واثقا أنه عاينها أو مر بها، تداخل هذا بذاك. لكنه فى كل الأحوال استغرق ولم يضايقه إلا حصر البول.